

أثر الحضارة العربية في التربية^(١)

الأستاذ عبد الحميد مسمر

تفشد جميع الأمم الحضارة وتسعى لتظهر منها بالحظ الأوفى وتبذل جهودها في استكمال مقوماتها . ولا تبعد عن الحقيقة إذا فهمنا أن الحضارة هي هذا النهوض الذي تعمل الشعوب على تثبيت دعائمه في مختلف المظاهر الحيوية للفرد والجماعة ، وهذا النظام الذي يكفل للإنسانية عيشة راضية موفقة .

ولا بد لهذه الحضارة من دعائم لاقامة بنائها وتوطيد أركانها . وقد تختلف الشعوب فيما تتخذ لحضارتها من أسس ، وفيما تمتط من سبل ولاكنها في الغالب ترمى إلى الحياة الرغدة وإلى خير الفرد والمجتمع .

والحضارة الحديثة هي ميراث كونه أمم مختلفة ، وبناء تعاونت شعوب وأفراد على إقامته . وأن أوفر الأمم والأفراد حظاً هم الافذاذ الذين قويت همهم وصحت عزائمهم على الخير ، واتجهت مواهبهم إلى نبيل الغايات .

وان بناء الحضارة هو صورة للإنسان وجهوده ، وفيه مقوماته من جسم وعقل وخلق . فللحضارة مظهرها وزخارفها ، ولها أسسها العقلية وألوانها الخلقية وطابعها الذي به تتميز . ومن أنواع الحضارة ما ليس له إلا الجسم والمظهر الزائف المريع الزوال ، ومنها ما له دعائم قوية من العقل والخلق وهو أثبت الأنواع وأقواها ، وهو الذي تبقى آثاره على مرور الأيام .

وإذا أردنا أن نصور ما عسى أن يكون للحضارة من مقومات تشبه ما للإنسان

من مواهب وصفات ، فانا نجد ذلك في التربية العقلية والخلقية . فالصلة اذن وثيقة بين الحضارة وعناصر التربية . ولا غرابة في ذلك ، فقد عرفنا أن الحضارة من عمل الانسان وفيها تتجلى صفاته . وأرسخ الحضارات قدما وأقواها شأننا ما قام على العقل الراجح والخلق القويم .

وهناك ناحية أخرى لها في الحضارة وفي التربية أثر وهي هذه الدعائم الثلاث التي تقوم عليها الحياة الصحيحة وهي : الحرية والعدالة والمساواة ، ولقد كان لحضارة العرب حظ عظيم من هاتين الناحيتين وهما ناحية التربية والثقافة ، وناحية هذه الدعائم الثلاث التي عليها بقاء الأمم وأمنها وسعادتها ، فقد كان شعارهم في كل ما فتحوا من بلاد وأمصار أن ينشروا الثقافة و يقيموا الدعائم للحضارة . وسنجد القول في آثارهم في التربية قبل الاسلام وبعده :

كانت فطرة العرب وبيئتهم وحياتهم وصفاتهم العقلية والخلقية في العصر الجاهلي هي الصفحة الأولى الناصعة التي خطت عليها أصول حضارتهم . ومن الشعوب من رزقوا حظا من الاستعداد يجعل نصيبهم وافراً من النعوض والحياة الصالحة حينما تتاح الفرص وتتوافر الاسباب . وقد فطر العرب على الحرية واكسبتهم بيئتهم الصحراوية صفاء في الذهن وسرعة في الخاطر ودقة في الملاحظة ، وكان لهم بحكم العنصر من المواهب مالاخوانهم النكدانيين والبابليين والفيلقيين الذين سجل لهم التاريخ آثارهم وحضارتهم ، غير أن العرب في الجاهلية لم تنح لهم فرصة من خصب الارض وثروتها ، فلم تكن حضارتهم مؤسسة على ما تغل الارض من ثروة زراعية أو معدنية ، أو على شادق المبانى وضخم المؤسسات ، بل كانوا كالعصامي الذي لا عدة له الا مواهبه التي أمدّه الله بها ، ولا سند له الا سعيه وجده ، ولا عون له الا عقله الذي يسترشد به ، وذكاؤه الفطري الذي يهديه الى طرائق الحياة . وقد اكسبهم كل هذا ميلا الى عيشة الاستقلال والاعتزاز بالشجاعة والفروسية .

وقد أشار د توماس كارليل ، في كتابه د الابطال ، في وصف العرب الى شيء

من هذا فقال . لأحسب أناسا شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار يحادثون ظواهر الطبيعة ويتناجون أسرارها ، إلا أن يكونوا أذكاء القلوب حداد الخواطر خفاف الحركة ثاقبي الفكر . . .

وقال أيضا : والحق أقول : لقد كان أولئك العرب قوما أقوياء النفوس كأن أخلاقهم سيول دفاقة ، لها من شدة حزمهم وقوة إرادتهم أحسن سور وأمنع حاجز ، وهذا وأبيكم رأس الفضائل وذروة الشرف الباذخ .

وكانت تربيتهم لاولادهم تسير على غرار هذه الصفات فكانوا يفتشونهم على نهجهم ويعلمونهم ركوب الخيل والرماية ويغرسون فيهم شيم الكرم والمروءة والوفاء والتجدة ، ويمثلون قلوبهم وعقولهم بنصائحهم .

وكانت مدرسة الحياة هي معيهم . وكتاب الطبيعة هو مصدر معارفهم ، فنظروا في السماء ونجومها ، ولاحظوا السحب ومهاب الرياح . وانطلقت السننهم بالبيان الرائع والشعر الرصين ، وأثر عنهم في أقوالهم ما يعد دروسا نافعة في الحياة .

فمن ذلك ما قال علقمه بن لبيد يوصي ابنه :

يا بني اذا نزغتك الى صحبة الرجال حاجة فاصحب من اذا صحبته زانك ،
وأن خدمته صانك . وإن أصابك خصاصة مانك ، وإن قلت صدق قولك ، وإن
صلت شد صولك . وإن مددت يدك بفضل مدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ،
وإن سأله أعطاك ، وإن سكنت عنه ابتداك وإن نزلت بك إحدى الملمات آساك .

وقال اعرابي لرجل :

أي أخى إن يسار النفس أفضل من يسار المال ، فإن لم ترزق غنى فلا تحرم
تقوى ، قرب شبعان من النعم ، عريان من الكرم ، واعلم أن المؤمن على خير ،
ترحب به الأرض وتستبشر به السماء ، وإن يساء اليه في بطنها وقد أحسن على ظهرها .
وقالت اعرابية توصي ابنا لها أراد السفر .

أي بني اجلس امنحك وصيتي وبالله توفيقك فإن الوصية اجدى عليك من
كثير عقلك . أي بني ، اياك والنميمة فانها تزرع والضغينة وتفرق بين المحبين ،

واياك والنعرض للعيوب فنتخذ غرضنا وخليق الا يثبت الغرض على كثرة السهام ،
وقلنا اعتبرت السهام غرضا الا كنهه حتى يهسى ما اشتد من قوته ، واياك والجلود
بدينك والبخل بمالك ، واذا هزرت فاهزز كريما يلن لمزتك ، ولا تهزز اللئيم فانه
صخرة لا يتفجر مائوها ومثل لنفسك مثال ما استجسنت من غيرك فاعمل به ،
وما استجبحت من غيرك فاجتنبه ، فان المرء لا يرى عيب نفسه ،

وغير ذلك كثير مما يدرس الآن دراسة أدبية لا علمية . ولا تهذيبية . ولو
درست هذه الآثار من الناحية التربوية لا تضح أن فيها كثيرا من الاصول النافعة
التي جادت بها هذه العقول التي نشأت في كنف الفطرة .

يتضح من هذا أن العرب في الجاهلية على سذاجة حياتهم وأميةهم كان لهم حظ
من الثقافة العقلية والخلقية بأسلوب طبيعي خال من مظاهر الدرس والبحث ، ولم
تكن تربيتهم في معهد أو مدرسة بل في رعاية الاباء والامهات ، وفي أحضان
البيئة والحياة العملية وهم وان لم يكن لهم نصيب من الثقافة المنظمة ذات الصانع
الحديث بدراسة العلوم والفنون ، كان لهم حس مرهف وذكا فطري وصفات
كريمة سجلها التاريخ . وكان بيانهم الرائع من أعظم مفاخرهم ، يتناقلونه شفاهها
دون قلم أو قرطاس . فيراعهم هو اللسان ، وقرطاسهم هو صفحات عقولهم . ولهم
في الجدل وقوة الحجة مقدرة رسخت في دمائهم ، وكانت مجامعهم وأسواقهم منتديات
للنقد والادب . فهم وان كانوا أميين من حيث القراءة والكتابة لم يكونوا أميين
في عقولهم أو تجاربهم . بل كانوا على جانب محمود من الثقافة الطبيعية الحيوية .
ذلك لان الامية شيء والثقافة شيء آخر ، فكم من أمي له عقل المثقفين ، وكم من
مثقف ثقافة تقليدية لا يعد الا في مستوى الاميين .

هذه هي المرحلة الاولى أو المدرسة الاولى للتربية العربية . وهي مرحلة نستطيع
أن نشبهها بالمرحلة الاولى من التعليم . ولعل فيها من الأسس والاصول ما تستبشر
به التربية الحديثة التي تعتد بالحرية وتغتنب بالمخايل الصافية للفطرة السليمة .
فلننظر إلى حالة العرب حين انتقلوا إلى المرحلة الثانية من مراحل التعليم
ودخلوا المدرسة التي وضع الاسلام أسسها

ففي هذه المرحلة انتشر الاسلام وامتلات بتعاليمه قلوب العرب ، وامتزجت فضائله بنفوسهم . وقد نبت الاسلام أصول العدل والحرية والمساواة والديمقراطية . وهناك ظاهرة واضحة في الفتوح الإسلامية . وهي أنها لم تكن استعمارا ، بل كانت ترمى الى نشر الدين وإشاعة فضائله لمن شاء أن يعتنقه عن رضا واقتناع ولم يكن المسلمون يعملون على نحو الأجناس بل كانوا يمتزجون بها بالمصاهرة . وللإسلام في أصوله كثير من المرامي الإصلاحية والنواحي التي تنهض بالشقافة وترقى بالعقول وتهذب النفوس . فقد نشر أصول الحياة الصالحة واعتد بالمواعب الإنسانية وغذاها من مناهل الثقافة . وفوق كل هذا جاء رافعا لواء العلم مشجعا على طلبه ، وتحجلى ذلك في كثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وأعماله وأوامره .

فمن ذلك قوله تعالى . يرفع الله الذين امنوا منكم والذين أو تروا العلم درجات — هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الالباب — يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يتذكر الا أولو الالباب

وقال صلى الله عليه وسلم . لا جسد إلا في اثنين رجل آتاه الله مالا فسلطه على مملكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها . وروى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فإذا هو بجلسين أحدهما يذكرن الله تعالى والآخر يتفقهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . كلا المجلسين على خير . وأحدهما أحب الى من صاحبه ، أما هؤلاء فيذكرون الله تعالى ويسألونه ، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل وإنما بعثت معلما ، وجلس الى أهل الفقه

وقال عليه الصلاة والسلام . لا تسمعوا العلم أهله فإن في ذلك فساد دينكم والتباس بصائرهم . وقال عليه الصلاة والسلام : يحمل العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين .

وغير ذلك من الشواهد كثير وهذا التشجيع العلى ظاهرة واضحة في الدين الإسلامي ، وهو الذي حفز المسلمين من العرب وغيرهم على الاهتمام بالتعليم ومجاهده

وكتبه وما يتصل بذلك . وكان كل هذا أساسا لهذه النهضة العلمية المباركة التي عمت العالم . وأحييت ما كان قد طمسه الزمن وطال عليه الأمد وغفلت عنه العقول وكانت الخطوة الأولى التي بنى عليها النهوض التعليمي في الإسلام هي نحو الأمية فالدين نفسه يتطلب معرفة القراءة ، وأول ما نزل من القرآن الكريم آيات فيها الإشادة بالقراءة والتعليم .

(اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم)
وفي غزوة بدر كان فداء الأسرى أن يعلم كل منهم عشرة من الأطفال القراءة والكتابة

وقد عنى المسلمون بطلب العلم يحفزهم اليه هذا الدافع الديني ، وكان نهجهم في ذلك متدرجا طبقا لتدرج حضارتهم ، وامتداد ملكهم ، وكثرة تجاربهم واتساع افقهم الحيوى ، وساروا في ثقافتهم العلمية في مراحل :

١، فكانت المرحلة الأولى هي تفهم القرآن الكريم وحفظه ، والقرآن هو أساس الدين وعماد ما فيه من تشريع وإرشاد في شئون الحياة للفرد والأسرة وللجمتمع ، وهو أساس ثقافي شامل ، وقد تفرعت من دراسته علوم شتى استلزمها فهمه ، كاللغة والقواعد النحوية والبلاغة والتاريخ والجغرافيا ومشاهد الكون وغير ذلك من شعب الثقافة . ونشأ عن هذا أيضا تدوين العلوم وتأليف الكتب المختلفة في كل فرع منها . وكان الهدف لكل هذا هو معرفة أصول الدين وأحكامه وتفهم ما فيه مما يكفل الخير والإصلاح

ولعلنا اذا تلمسنا سببا لهذه الدراسة الشاملة للقرآن الكريم والاشتغال بالعلوم المتعددة التي يتضمنها تفهمه فانا نجد أن هذا أشبه بطريقة تجميع مواد الدراسة التي بنيت على مبادئ دهربات ، أو بطريقة المشروع وهي من أحدث طرق التعليم وتستخدم الآن في مصر في المدارس النموذجية بالقاهرة وهي طريقة يختار لها موضوع أساسى يتخذ محورا للدرس ثم يترك للمتعلمين البحث فيه من شتى نواحيه على حسب ما تتجه اليه عقولهم وما يمت الى الموضوع بصلة ولهذا الطريقة فوائد التي أوضحها علماء التربية

سار المسلمون في هذه المرحلة من الدراسة سيراً مقروناً بالهمة والنشاط وكانت أساليبهم في البحث والتفكير تجرى على الطرق الاستنباطية والقياسية فكانوا يتبعون الجزئيات للوصول إلى القاعدة الكلية، ثم يعمدون فيطبقون هذه القاعدة على الأحوال الجزئية. وقد ظهر ذلك جلياً في علوم كثيرة وأخصها بحوثهم في الفقه الإسلامي وأصوله ونظرياته العامة ولهم في ذلك من الدقة المنطقية ما يقدره المؤرخون في عصرنا الحديث

(٢) المرحلة الثانية أو الوثبة الثانية

وفيها اتجه المسلمون في دراستهم وبحوثهم إلى العلوم الكونية وهي الفلسفة والرياضة والعلوم وما إلى ذلك مما يسمى الآن في بعض المعاهد العلوم الحديثة وأن ما تشجع به المسلمون وما أيقظه فيهم الإسلام من حب البحث والدرس حفزهم إلى أن يبحثوا فيما خلفه اليونان وغيرهم من فلسفة وعلوم وليس في الدين الإسلامي ما يمنع ذلك مادام بعيداً عن المساس بالعقيدة أو إفسادها فإن البحث وراماً لحقائق الكونية أو العلمية ومعرفة ظواهر الطبيعة وأسرار ما خلق الله كل هذا مما يبحث عليه الدين الإسلامي. فإن للإسلام إلى جانب ميادين الدين والعبادة ميدانه المدني والسياسي والاجتماعي

وفي القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تتضمن الحث على النظر والتفكير قال تعالى «أو لم ينظروا في مآلوت السموات والأرض وما خلق من شيء» - «أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ونصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تدل على حقيقة ثابتة وهي أن الإسلام كان منشطاً للحياة العقلية مشجعاً على البحث والتفكير مثبتاً أصول الاجتماع في تطبيق الأحكام الدينية، منكرراً المحاكاة العمياء، رافعاً من شأن العقل الإنساني. وقد شد أزر الفلسفة وغذاها، لأن قواعده فطرية لا تنافي للمنطق والتفكير السليم. لهذا عكف المسلمون على الاشتغال بما ترك اليونان وغيرهم من علم وفلسفة، ونشطوا ترجمة ذلك، وكافوا المترجمين بالمال الكثير.

نشط ذلك أيام أبي جعفر المنصور ثانی الخلفاء العباسيين ، ثم جاء الرشيد حفيد المنصور فبهر ملوك أوروبا بما وصل اليه العرب من علم وثقافة واختراع . وجاء المأمون فأتم ما أسسه سابقوه من الخلفاء . وفي عهده ازدادت العناية بالفلسفة وبالبحث والجدل . وكان للعلماء عنده شأن ومكانة عالية . وكانت مجالس المناظرة والجدل في عصره من أخص الظواهر التي تدل على النشاط والبحث ، والتاريخ الأدبي حافل بذلك .

وقد سار خلفاء المسلمين وملوكهم على هذا النهج من الاهتمام بالعلم والترغيب في طلبه . وظهر الاشتغال بالفلسفة وبالعلوم الكونية في جميع مظاهرها واضحا في جمعية أخوان الصفا التي ألفت في القرن الرابع الهجري . وقد جوت رسائلهم أنواعا من العلوم الحسية والعقلية والفلسفية . وتعتبر هذه الرسائل صورة من المنهج الشامل للثقافة العربية في نواحيها العلمية والفنية والفلسفية .

وقد وصلت الثقافة العربية غايتها في القرن الرابع الهجري . وكان مركز هذه الثقافة الشاملة العالمية بمدينة بغداد عاصمة الدولة العباسية ومنها كان ينبعث نور العلم والحضارة ، وفي كنف خلفائها انضجت الذخائر العلمية القديمة ووضعت أسس الثقافة التي سطعت على العالم وأبقت الانسانية .

وكان العرب في تلك العصور هم حملة مصباح الثقافة ، وقد أخذ ضوءه يشع ويسطع ويعم الممالك الشرقية ، ثم انبعث نحو الغرب بجنازا افريقية إلى المحيط . ومن هذا المضيق الذي لا يزال يحمل اسماء عربيا وهو مضيق دجيل طارق ، عبر العرب إلى الأندلس فوطدوا في هذا الأقليم ملكهم ، ونشروا حضارتهم وثقافتهم ، وظهرت فيه مواهبهم ، وكان للفن الجميل شأن في عهدهم ، تدل على ذلك آثارهم الرائعة التي لا تزال ماثلة في ربوع الأندلس للآن .

وقد سار العرب في اسبانيا على غرار ما كان في بغداد من العناية بالعلم والاهتمام بنشر الثقافة وإذاعة العرفان ، وكان الاتصال العلمي وثيقا بين المدينتين العظيمتين بغداد وقرطبة ، وكان العلماء وطلاب العلم يتنقلون بين المشرق والمغرب رغبة في التعلم والتعليم .

وقد عرف ملوك أوروبا للخلفاء في الاندلس مثل ما عرفوا للخلفاء بغداد ، فارس ملك الروم لعبد الرحمن الناصر الهدايا الثمينة ، وكان لاستقبال رسله حفل رائع في قرطبة سجلت كتب الأدب وصفه الممتع .

وقد تقاطرت وفود الأوربيين على الاندلس ، وعظم نزوح طوائفهم إليها للاخذ عن العرب ، وكان العرب على عادتهم يذيعون العلم ولا يكتُمونه ، وبسبب ذلك على النهج الديمقراطي الذي طبعت به حضارتهم وحياتهم . وفوق هذا قد امتزجوا بأهل الاندلس امتزاج مصاهرة واتلاف ، فكان كل هذا دعائنا إلى الاطمئنان والنشاط العقلي .

•••

سارت عاصمتا المشرق والمغرب بغداد وقرطبة تتنافسان في الاستزادة من العلم وتثبيت دعائمه ، وكانت هذه المنافسة خيرا على العالم . ثم ظهر منافس ثالث وهو مدينة القاهرة ، وكان مظهرها في الفنون أقوى منه في العلوم . وقد نشطت هذه العواصم الثلاث وسارت سيرا حثيثا تحدد الثقافة بعنايتها وتبذل للعلم ورجاله معونتها فيخفي العالم من ذلك أطيب الثمرات . وكان لهذا النشاط أثره في النهضة العلمية في العالم بعد أن خمدت جذوة العلم والبحث في العصور الوسطى في أوروبا . والفضل في هذا يعود إلى العرب ونهضتهم وما جاء به الإسلام من مبادئ شجعت العلم ونشطت التعليم وأشاعت الثقافة وأعادت للعقل حريته وبكائه .

لم يقتصر النهوض العلمي ، الذي ائبغ بعناية العرب ، على البحث والدرس ، ولا على ما كشفه المسلمون من أصول علمية وفنية ، بل أن العرب عملوا على نشر العلوم والثقافة بوسائل وهي :

معاهد العلم - التأليف - المكتبات

أما المعاهد العلمية فكانت في أول الأمر في المساجد التي كانت تقام فيها حلقات العلم ومجامع الإرشاد ومنازل الخطابة الدينية والسياسية والاجتماعية . ثم أنشئت المكتبات بجانب المساجد لتعليم القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة .

وقد أنشأ العباسيون المدارس يتعلم فيها الخاص والعام . وقد أمر هارون الرشيد

أن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها . وجاء المأمون فتابع الخطأ ، وازداد العلم والتعليم في عهده نشاطا وذيبوعا حتى شملت المدارس الملكية الإسلامية جميعها على سعتها .

واهتم العباسيون كذلك بترجمة العلوم واعداد التراجم فأنشئوا في بغداد مدرسة ألسن لتربية المترجمين تحت نظارة طبيب نسطورى ورتبوا خمسة عشر ألف دينار لمدرسة يتعلم فيها بجانا ستة آلاف تلميذ .

ولم يرتض المأمون أن يكون تقدم الفنون منوطا بسخاء الخليفة بل رصد لذلك أموالا ووقف عليها أوقافا دائمة فتحت بها مدارس في جميع المملكة ، وأحضر لديه كثيرا من علماء اليونان والفرس والسكندانيين وأباح لهم الالتحاق بالوظائف الحكومية . وبما بذلك ما كان شائعا من أبعاد الاجانب عن مناصب المسلمين . وقد سار ملوك الاسلام من الفرس والسلاجقة والأتراك على هذا النهج فاهتموا بإنشاء المدارس . ومن أهمها المدرسة النظامية والمدارس السكثيرة التى أنشأها المماليك فى القاهرة .

ومنها أيضا المدرسة المستنصرية فى بغداد وهى من أعظم آثار المستنصر بالله الخليفة العباسى . وأنا نسوق ما جاء فى وصفها من كتاب « تراث الاسلام » فى المقال الذى وضعه « الفردجيوم » ، الخاص بالفلسفة واللاهيات ؛

« ولكن أعلى الجامعات الإسلامية ذكرا وأرفعها مكانا هى المستنصرية ، وقد

أسست ببغداد سنة ١٣٣٤ م

وقيل أنها فاقت كل ما سبقها فى الاسلام من دور العلم فى مظهرها الخارجى وأبهة زخارفها وفاخر أبنائها واتساع بانياتها ووفرة أوقافها . وكانت تضم أربع مدارس مستقلة للشريعة ، تقوم كل منها بتدريس مذهب من المذاهب الأربعة .

ويتولى أمرها استاذ يعهد اليه بخمسة وسبعين طالبا (فقيها) يلقيهم العلم دون أن يسألوا على ذلك أجرا ويتقاضى الاساتذة الأربعة مرتبا شهريا كما يتقاضى كل طالب دينارا من الذهب كل شهر .

وكان للدرسة - الى جانب هذا - مطبخ غنى بمد الاساتذة والطلاب بجرايات يومية من خبز ولحم .

ويقول ابن الفرات ان المستنصرية كان بها مكتبة عامرة بالكتب النادرة في شتى العلوم قدر تبت بحيث يسهل رجوع الطلبة اليها ويتيسر نسخ المخطوطات للراغبين في نسخها ، وكانت ادارة المكتبة توزع على الطلاب ما يحتاجون اليه من ورق وأقلام وتزودهم فوق ذلك بالمسارج وما يلزم لاضافتها من زيت الزيتون كما كان بالمسكن صهاريج خاصة بتبريد مياه الشرب وساعة حائط في بهو المدخل ، ولا شك في أنها كانت نوعا من أنواع الساعات المائية ، كما كان في داخل المعهد حمام للطلاب وبيارسان عين له طبيب كان عليه أن يحضر كل صباح ليصف للرضى ما تتطلبه حالتهم من دواء كما ضمت المدرسة نخازن كبيرة قد زودت بجميع أنواع الطعام والدواء ،

(المكتبات)

وهي مظهر من مظاهر النتاج العلمي والاهتمام بالتدوين ، وعون على البحث والتحصيل ، ولها الآن مكانة في معاهد العلم على اختلاف درجاتها .

وقد عنى المسلمون بإنشاء دور الكتب العامة والخاصة ، فأنشأ الرشيد بيت الحكمة في بغداد ، وأنشأ الحاكم بأمر الله الفاطمي دار الحكمة في القاهرة ، وكانت مكتبة قرطبة تحوى كثيرا من الكتب في شتى المباحث العقلية والنقلية التي ألفها أو ترجمها العرب في مختلف أنواع المعرفة . وكان الحسك بن عبدالرحمن الناصر مغرما بجمع الكتب ، وكان يبعث التجار الى الاقطار وينزودهم بالاموال لشراؤها ، وكان كذلك يجمع في داره المهرة في صناعة النسخ والضبط والتجليد للقيام بما تتطلبه الكتب من اعداد ونقل

كل هذا كان في تلك العصور التي لم تنتشر فيها الطباعة ولم يكن المؤلفين والدارسين من وسيلة الا الكتابة والنسخ بالأيدي . ولا تزال طائفة من هذه المخطوطات العربية التي لم تخرج إلى أيدي القراء بعدد لا يحصى على هذه النهضة العلمية المحمودة ونرجو أن تنبجها الهمة الى اظهار هذه الذخائر حتى تتم الاستفادة منها .

سارت هذه النهضة العربية الاسلامية تنشر العلم والثقافة وتحارب الجهل الذي كان يخيم على العقول . وقد نبعت من بلاد العرب وعمت المدن الاسلامية في البصرة والكوفة ثم بغداد وانتشرت في الممالك الشرقية ثم عبرت البحار الى بلاد الاندلس فازدادت ازدهارا بعد أن تجمع للعرب كثير من ألوان العلم والمعرفة وقد أخذ عرب

الاندلس هذا التراث الشامل ودرسوه وتنافسوا في البحث فيه، حتى في عصور الانقسام واستقلال بعض الحكام باطراف البلاد وأجزائها كان تناقض هؤلاء الملوك في العلم وتنشيطه عظيمًا بل كان هو الوسيلة لتثبيت النفوذ وإقرار السلطان. وكان ذلك في الشرق والغرب معًا.

ومن الاندلس سطعت أنوار العلم والرؤية على أوروبا فاتخذ أهلها عن العرب نظام الجامعات ووسائل البحث والدرس ورأوا في اللغة العربية المعين الصافي لشتى العلوم ووجدوا أن العرب قد نقلوا ما في الثقافات القديمة اليونانية وغيرها وحضوا ذلك وهذبوه وأضافوا إليه ما يضيفه العالم الدارس وبذلك ظفرت أوروبا بهذه الذخائر العلمية فكانت عونًا لها في نهضتها.

ومن هذا يتضح أن العرب كانوا أبطال تلك الأيام وأن فضلهم على الثقافة عظيم بما أذاعوا من علم، وما أقاموا من مدارس وجامعات، وما ألفوا أو ترجموا من كتب وما أنشئوا من مكتبات، وما قاموا به من حفز التفكير وإيقاظ العقول وتشجيع البحث والاهتمام بالتربية الاستقلالية، وكانوا وحدهم أساندة العالم عدة قرون. وأن جامعات أوروبا لم تستغن عن تدريس ما نقل إليها من مؤلفات العرب إلا في الازمنة الأخيرة.

وقد قال العلامة سيديو :

« إن السكروز الأدبية العظيمة التي أوجدها العرب في ذلك العصر ونتاج نبوغهم العلمي واختراعاتهم الثمينة تنهض دليلًا على نشاطهم الفكري، وتؤيد الرأي القائل بأن العرب هم أساندة في كل شيء ».

ننتقل بعد ذلك إلى الجانب الفني من التربية وهو الطرق التي كان العرب يتبعونها في بحثهم العلمي والأساليب التي كانوا يسلكونها في التعليم، وهو الجانب الذي تعنى به معاهد التربية ويهتم به رجالها الآن.

أما طريقة البحث فقد كان أساسها في العازم هو التجربة والسير على الأسلوب المنطقي، وقد ساروا على هذا النهج في علومهم النقلية منذ بدءوا يشتغلون بالعلوم الشرعية في فجر نهضتهم. وإن أروع وادق ما استحدثوا ذلك العلم الذي وضعوه على غير مثال سبق وهو علم الأصول « أصول الفقه »، وإن الذين يتبعون مسأله وبحوثه

المتنوعة يرون فيه لونا دقيقا من ألوان البحث العلمي ويجدون من القواعد العامة والإساليب الاستنباطية والاستقرائية والنظريات العلمية في كل مذهب من مذاهب أئمة المسلمين ، ما يدل على عبقرية ومنطق سليم . وقد ساروا على هذا النهج في بحوثهم العلمية والكونية والفلسفية ، وكانت التجربة أساس نتاجهم العلمي .

ويقول الأستاذ جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب :

يقول الاوربيون ان ديبكون ، أول من قال بالتجربة والترصد اللذين هما ركن المباحث العلمية ، ولكن الانصاف يقضى بأن نعتزف بأن الفضل في ذلك للعرب وحدهم . وقد أبدى هذا الرأي مع ذلك جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب وقال العلامة سيدو :

إن من أهم ما اتصف به جامعة بغداد منذ البداء هو روحها العلمي الصحيح الذي كان سائدا لها في استخراج المجهول من المعلوم والعلل من المعلولات ، وفي عسدم التسليم بما لا يقوم على التجربة والترصد .

وقد كان العرب في القرن التاسع من الميلاد حائزين لهذا المنهج المجدى الذى اقتبسه علماء أوربا بعد زمن طويل فكان عاملا في استكشافاتهم المفيدة .

هذه هى طريقة العرب فى الدرس والبحث ، على حين كانت الطريقة فى أوربا هى دراسة الكتب والاقتصار على رأى المعلم .

وأما طريقتهم فى المواد الأدبية والنقلية فهى ان يعد الأستاذ درسه ويكتب الموضوع ثم يلقى على الطلاب بعد الحوار والشرح وهم يكتبون عنه . ثم تكون هذه الدروس كتباً وإمالى تفسر بين الناس فى علوم مختلفة . ولدينا الآن طائفة من هذه الكتب والإمالى

وبعد ان تكونت طائفة صالحة من المؤلفات أصبحت الطريقة ان يتخير الأستاذ كتابا يدرسه مع طلابه ويشرح لهم موضوعاته ويحاورهم فى مسائله . وبعض الاساتذة يكتبون تعليقات على الكتاب الذى يشرحونه تسمى الحاشية ، وبعضهم يضيف الى الحاشية شروحا وإضافات تسمى التقرير ، وقد طبع من كل هذا أنواع لانزال الى الآن فى الكتب الازهرية .

وكانت هذه الطريقة متبعة في المعاهد العلمية في الشرق وفي الازهر ، ولا تزال بقية منها ليست بالقليلة في المعاهد الدينية بعد أن دخلت في دورها النظامي الجديد ومن حسنات هذه الاساليب ذلك الحوار الذي يشبه حوار سقراط ، وان كان قد تحول في عصور المهبط العلبي الى جدل حر في قليل الجدوى يدور حول الألفاظ والعبارات في كثير من الاحيان .

•••••

أما النواحي الفنية في التدريس وأصوله فلهم منها نصيب له شأن : لهم في علم النفس وعلم الاخلاق ما يعتبر أساسا صالحا لفهم الطبيعة الانسانية وطرق تهذيبها وتربيتها ووسائل كسبها للعلوم . ولهم أيضا بحوث كثيرة في التربية الخلقية وفي العناية بالفضائل الانسانية وطرق غرسها في نفوس الناشئين . ولهم كذلك طرق عملية في تخيير مناهج الدراسة وفي وسائل التدريس وأساليه .

•••••

في النواحي النفسية نجد بحوثا لها قيمتها فيما كتبه ابن سينا في كتابه الشفاء وفي مختصره وهو كتاب النجاة

فقد أوضح في المقالة الخاصة بالنفس في كتاب النجاة كثيرا من الاصول النفسية فحدث عن النفس باعتبارها جنسا وقسمها ثلاثة أقسام :

النباتية والحيوانية والانسانية موضحا الفروق بين هذه الاقسام .

ثم قسم النفس الحيوانية إلى محرك ومدركة ومن الحركة : القوة النزوعية والشوقية والقوة الشهوانية والقوة الغضبية

والمدركة قسمان : قوة تدرك من الخارج وهي الحواس الخمس ، وقوة تدرك من الباطن ، ومن هذه ما يدرك الصورة ومنها ما يدرك المعنى . ثم تكلم عن الحس المشترك وهو قوة تقبل بذاتها جميع الصور المنطبعة في الحواس الخمس .

وتكلم أيضا عن الخيال وعن النفس الناطقة وعن القوة النظرية التي من شأنها أن تنطبع بالصور الكلية المجردة عن المادة — وهذا هو إدراك الكل ، وعن الفرق بين إدراك الحس وإدراك التخيل وإدراك الوهم وإدراك العقل — وهذا شبهه بالإدراك الحسي والإدراك العقلي في كتب علم النفس الآن .

وتعرض أيضا الى طرق اكتساب النفس الناطقة للعلوم والى اختلاف المتعلمين فى استعدادهم وفيما لهم من ذلك بحكم الخلقة .

وفى رسائل إخوان الصفا كذلك بحوث نفسية لها قيمتها عن قوى النفس .
وهى خمس قوى حساسه هى الحواس وخمس قوى أخرى وهى : المتخيلة — المفكرة — الحافظة — الناطقة (أو المعبرة) — الصانعة . وتفصل الرسائل انتقال المحسوسات من المتخيلة إلى الحافظة لتبقى إلى وقت الحاجة ، ثم تتناولها القوة المعبرة وتعبّر عنها ثم تقيد بالكتابة . وفيها أيضا بحوث فى النفس الناطقة والشهوانية والغضبية ، وكذلك فى الحاس والمحسوس وفى الحس والاحساس وفى كيفية الادراك فى الحواس المختلفة وكيفية وصول آثار المحسوسات إلى القوة المتخيلة وكذلك فى طاقة الانسان من المعارف ، وفى بيان الاخلاق وأسباب اختلافها وأنواع عطلها وفى أمراض النفوس وعلاجها ، إلى غير ذلك من مختلف البحوث التى تعتبر أساسا صالحا للتربية العقلية والخلقية .

وتتمتاز هذه الرسائل بأنها تسوق كل هذا فى أسلوب مقرون بضرب الأمثلة وبالابيضاح الذى يقرب الحقائق للاذهان ، مما يدل على مهارة واضعها ومقدرتهم التعليمية .

وهذه الرسائل تعتبر صورة لمنهاج ثقافى لمرحلة ثانوية تجمع كثيرا من ألوان المعرفة التى نحرص على أن يتعلمها شباننا فى عصرنا الحاضر .

وقد لفت نظرى فى هذه الرسائل موضوع هو أشبه بمنهاج دراسى مصور أو مشفوع بوسائل الأيضاح .

فقد جاء فى احدى هذه الرسائل ما يأتى :

« ذكروا أنه كان ملك من الملوك حكيم من الحكماء سيد من السادات وكان له أولاد صغار محبوبون له مكرمون عليه . فأراد أن يؤدبهم ويهذبهم ويروضهم ليقومهم قبل إياصلم إلى مجلسه لأنه لا يطبق بمجالس الملوك إلا المهذبون بالآداب والمراضون فى العلوم المتخلقون بالأخلاق الجميلة المبرهون من العيوب .

ف رأى من رأى الرصين والحكمة أن يبنى لهم قسرا على أحكم ما يكون من

البنيان ، فأفرد لكل واحد منهم مجلسا وكتب كل علم أراد أن يعلمهم إياه في جوانب ذلك المجلس ، وصور فيه كل شيء أراد أن يـذهبهم به . ثم أجلسهم في ذلك القصر ، وأجلس كل واحد منهم في حصته المعدة له ووكّل بهم الخدم وقال لأولئك الأولاد : انظروا إلى ما صوّرت لكم بين أيديكم واقروا ما كتبت فيه من أجلكم ، وتأملوا ما بينت لكم ، وتفكروا فيه لتعرفوا معانيه وتصيروا من أجل ذلك حكماء أخيارا فضلاء أبرارا فأوصلكم إلى مجلسي فتكونوا سعداء منعمين أبدا .

وكان مما كتب لهم في ذلك المجلس من العلوم :

(١) ان صور في أعلى قبة المجلس صورة الأفلاك وبين كيفية دورانها وأبراج مطالعها ، وكذلك الكواكب وحركاتها وأوضح دلائلها وأحكامها .

(٢) وصور في صحن المجلس صورة الأرض وأقسام الأقاليم وخطط الجبال والبحار والبراري والأنهار ، وبين حدود البلدان والمدن والمسالك والممالك .

(٣) وكتب في صدر المجلس علم الطب والطبائع وصور النبات والحيوانات والمعادن بأنواعها وأجناسها وأشخاصها ، وبين خاصيتها ومنافعها ومضارها .

(٤) وكتب في الجانب الآخر علم الصنائع والحرف وبين كيفية الحرث والنسل وصور المدن والأسواق وبين أحكام البيع والشراء والربح والتجارات .

(٥) وكتب في الجانب الآخر علم الدين والممل والملل والشرائع والسنن والحدود والأحكام .

(٦) وكتب في الجانب الآخر السياسة وتدبير المملكة وبين كيفية جباية الخراج والكتاب والدواوين وبين أرزاق الجنود وحفظ الرعية والثغور بالجيش والاعوان .

فهذه ستة أجناس من العلوم يراض بها أولاد الملوك .

وهذا مثل ضربته الحكيم .

ذلك أن الملك الحكيم هو الله تعالى — والاولاد الصغار هي الإنسانية —

والقصر المبني هو الفلك بأسره — والمجالس المتقنة هي صورة الانسان — والآداب

المصورة هي عجيب تركيب جسده - والعلوم المكتوبة فيه هي قوى النفس ومعارفها . ونحن نبين هذا فصلاً فصلاً .
وانا لنجد في كل هذا نظاماً تعليمياً يستحق الرعاية من رجال التربية في عصرنا الحديث .

• • •

وليس هذا فحسب هو ما نجد للعرب من البحوث في التربية والتعليم . فأنا نجد كذلك لبعض الباحثين آراء عملية لها مكانتها ، إذا قيس بمقياس الآراء الحديثة في التربية .

فالغزالي له في هذه النواحي آراء نافعة في كتاب « أحياء علوم الدين » فمن ذلك :

« آداب المتعلم » :

(١) طهارة النفس عن مذموم الأوصاف

(٢) ألا يخوض في فن من فنون العلم دفعة واحدة بل يراعى الترتيب ويتدبى بالآدم .

(٣) أن يعلم نسبة العلوم إلى القصد كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره .

« آداب المعلم »

(١) الشفقة على المتعلمين وأن يحرمهم بجرى بنية .

(٢) ألا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكراً بل يعلم لوجه الله

(٣) ألا يدع من نصح المتعلم شيئاً .

(٤) الوظيفة الرابعة وهي من دقائق صناعة التعليم :

أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التهريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجراءة ويهيج الحرص على الإصرار

(٥) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلتقى إليه ما لا يبلغه عقله فيثقله أو يثبط عليه عقله .

ومن ذلك بجوئه في الاخلاق وحقيقة الخلق وما ينال به حسن الخلق ، وفي تفصيل الطريق الى تهذيب الاخلاق ، وبيان علاقات حسن الخلق .
ومن ذلك ما ساقه في رياضة الصبيان ووجه تأديبهم :-

(١) أن يمدح عنده الصبي المتأدب .

(٢) أن يجازى على ما يظهر منه من خلق جميل وفعل محمود

(٣) لا تنكسر القول عليه بالعتاب .

(٤) أن يعود في بعض النهار المشى والحركة والرياضة

(٥) الحفظ من قراء السوء

(٦) أن يؤذن له بعد الانصراف من الدروس أن يلعب لعباً جميلاً يستريح

اليه من تعب المكتسب بحيث لا يتعب في اللعب . فان منع الصبي من اللعب وارهقه الى التعليم دائماً يمت قلبه ويبطل ذكاهه وينقص عليه العيش .

ولابن خلدون في مقدمته آراء لا بأس بها وقد ساقها في الفصل الذي عقده في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه :
فتحدث فيما يأتي :

(١) في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة

(٢) في أصناف العلوم الواقعة في العمران .

(٣) في أن كثرة الاختصاصات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم .

(٤) في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته :

١ - وذلك أن تلقين العلوم إنما يكون مفيداً اذا كان على التدرج .

٢ - لا ينبغي أن يزيد المتعلم على ما تنسج له طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو فقيهاً .

٣ - وبحث في الفكر الانساني وفي النظام المنطقي للتفكير .

٤ - وفي تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه ، في المغرب

وفي الاندلس ، وفي افريقية ، وفي المشرق

٥ - وبحث أيضا في طريقة معاملة المتعلمين وفي أن الشدة مضرة بهم ثم ختم ذلك بذكر نصيحة الرشيد للأحرر الشيباني معلم ولده الأمين وهي :

« يا أحرر إن أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه ومثمة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فلن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن وعرفه الاخبار وروه الاشعار وعلّمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامتنعه من الضحك إلا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت منتهم فائدة تفيده لإياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة ،

هذه صفحة من جهود العرب في التربية والتعليم ونشر الثقافة ، وأنها لصفحة بجيدة يفخر بها التاريخ . ولنا نبغى بعرضها أن نغض من جهود علماء العصر الحديث في التربية أو أن ندعى أن الأول لم يترك للآخر شيئا كما يقال ، ولكننا إنما نسطر الواقع ونسجل لذوى الفضل جليل عملهم وصادق جهودهم فيما أدوا للإنسانية .

وإننا نلرجو أن يكون هذا الماضي المجيد حافزا للعروبة وللشرق حتى تنهض شعوبه وتسير في ركب الحياة متعاونة متآزرة وتتخذ لمستقبلها دعائم من العقل الراجح والهمة الوثابة والخلق القويم .

عبد الحميد محمد